صالح رأفت / تتمة

الفلسطينية، والمنتخب من قبل مؤسسات منظمة التحرير كرئيس للجنة التنفيذية، والقبول بالرؤية الأمريكية الإسرائيلية المتعلق بما يسمى «الدولة الفلسطينية المؤقتة»، التي ستتحول وفق وجهة نظر شارون الى دولة دائمة.

وهنا ليس سرا القول أن أصحاب هذه الأصوات يطمحون الى الاستئثار بالحكومة الفلسطينية، أي بالقرار الفلسطيني لتنفيذ ما يسعون إليه.

ونحن في الاتحاد الديمقراطي الفلسطيني «فدا» من القوى التي تدعو الى التغيير والإصلاح منذ سنوات طويلة. وفي هذا السياق، نود التأكيد أنه رغم ما يجري من عدوان وحصار ومجازر، ما نزال نرى ضرورة في الاستمرار في عملية التغيير والإصلاح التي تكفل تعزيز صمود الشعب الفلسطيني، وتعالج المشكلات الاقتصادية والاجتماعية الآخذة في التفاقم، والتي يعاني منها غالبية أبناء الشعب الفلسطيني، الذين باتوا يعيشون دون خط الفقر، وبما يكفل أيضا إجراء انتخابات في جميع المستويات، لأن التغيير الحقيقي برأينا يأتي عبر صناديق الاقتراع.

وفي الوقت نفسه ندعو الى اعتماد قانون انتخاب جديد يؤكد على التزامن بين الانتخابات الرئاسية والتشريعية، ويعتمد النظام الانتخابي المختلط، الذي يجمع بين نظام الدائرة الانتخابية والقائمة النسبية، لأن هذا من شأنه ضمان تكريس القدس كدائرة انتخابية، والحفاظ المقاعد المخصصة للمسيحيين، والطائفة السامرية.

حين كانت حياة الرئيس ومن معه مهددة بالخطر، خرج علينا بعض المسئولين الذين تحدثوا عن الفراغ القيادي وضرورة إطلاق مبادرة سياسية فلسطينية جوهرها التعاطي مع المطالب الأمريكية الإسرائيلية بالطبع. هؤلاء هم أنفسهم من أبرز دعاة وقف الانتفاضة منذ أيامها الأولى، أي الانتفاضة ذات الطابع الشعبي.

فراغ قيادي أم استقواء بالدبابات الإسرائيلية

– هناك من يقول أن العديد من الأصوات المنادية بالإصلاح ليست أصيلة، بمعنى أن منها من يحاول ركوب الموجة لغايات شخصية وربما لغايات يقول البعض أنها مشبوهة، ماذا تقول في ذلك؟

في الهجوم الأخير على مقر الرئاسة برام الله، حيث كانت حياة الرئيس ومن معه مهددة بالخطر، خرج علينا بعض المسئولين الذين تحدثوا عن الفراغ القيادي وضرورة إطلاق مبادرة سياسية فلسطينية جوهرها التعاطي مع المطالب الأمريكية الإسرائيلية بالطبع. والملفت للانتباه هنا، أن هؤلاء هم من أبرز دعاة الإصلاح والتغيير. وهم أنفسهم من أبرز دعاة وقف الانتفاضة منذ أيامها الأولى، أي الانتفاضة ذات الطابع الشعبي.

لكن الحسم الوطني لدى كوادر حركة فتح وأعضاء القوى السياسية الأخرى، ومعهم جماهير شعبنا، كان قادرا على استشعار خطورة مثل هذه التصريحات. فقد جاء الرد سريعا وقاطعا، وتمثل في الهبة الشعبية التي عمت سائر الأراضي الفلسطينية، من رفح الى جنين، وحتى بعض التجمعات الفلسطينية في الخارج.

وبرأيي أن هذه الجماهير انتفضت ضد العدوان والهجوم الذي استهدف مقر الرئاسة أولا، وضد الدعوات التي تنادي بالتعاطي والتكيف مع المطالب والشروط الأمريكية الإسرائيلية، ثانيا.

– لماذا الآن بالتحديد تعالت هذه الأصوات؟

• يمكن القول أن بعض هؤلاء بات يعتقد ان الرئيس ياسر عرفات صار ضعيفا بفعل شراسة العدوان واستمرار المجازر وتصاعد الاعتداءات التي استهدفت تقويض أركان السلطة الوطنية، ومؤسساتها. لذلك هم يحاولون استثمار العدوان والحصار في محاولة لفرض شروطهم ورؤيتهم على الرئيس عرفات، الذي ما يزال متمسكا بالبرنامج الوطني والحقوق الوطنية، ويرفض أن يكون ألعوبة في يد الإدارة الأمريكية ودولة الاحتلال.

رموز الفساد صارت رموز الإصلاح

– ألا تعتقد أن الطريق والسياق والتوقيت الذي أثيرت فيه قضية الإصلاح، كلها عوامل ساهمت في ضرب عملية الإصلاح وأفقدتها معناها؟

•بالتأكيد، لكن الشعب الفلسطيني شعب صغير ويعرف بعضه البعض، ولذلك فهو يعرف حقيقة معدن الرموز التي تريد الإصلاح لما فيه مصلحة الوطن، ويعرف رموز الفساد التي باتت تطرح نفسها الآن باعتبارها الأب الشرعي لفكرة الإصلاح.

مع ذلك أستطيع القول أن كثافة الحديث عن ضرورة إجراء إصلاحات، وما رافقه من تداعيات واجتهادات أدخل الشعب الفلسطيني في حالة من عدم الوضوح والالتباس، و بالتالي بات الشعب الفلسطيني متشككا حيال هذه القضية، خصوصا عندما أصبح يرى ان العديد من رموز الفساد اخذ يطرح نفسه قائدا لعملية الإصلاح و التغيير.

– كيف تنظر الى الحراك و الجدل الذي تشهده حركة فتح على هذا الصعيد؟

•الحراك الداخلي في حركة فتح، و في سائر القوى الفلسطينية، يأتي بالأساس بفعل الانتفاضة والتحديات التي افرزها العدوان الإسرائيلي المتواصل ضد الشعب الفلسطيني. وأستطيع ان أقول ان الغالبية العظمى من أعضاء و كوادر القوى السياسية في بلادنا ما زال همها الأول هو مواصلة الانتفاضة و الكفاح من اجل الخلاص من الاحتلال و الاستيطان و إقامة الدولة الفلسطينية المستقلة. في حين ان البعض ممن يعرفون بالنخب السياسية، سواء من كان منهم في قيادة السلطة او قيادة القوى السياسية، لا هم له سوى الدفاع عن موقعه و امتيازاته. لهذا فهو سيقاتل بشراسة في سبيل حجز مقعد في أية حكومة جديدة. و في حال فشلت هذه المحاولة سيسعون الى استحداث مؤسسات و هيئات حكومية تشبه الوزارة من حيث المواصفات تضمن لهم نفس القدر من الحضور و الامتيازات و المكاسب.

وعندما تجري الانتخابات العامة، آجلا ام عاجلا، سيحاسب الشعب هؤلاء باستبعادهم من عضوية المجلس التشريعي و المجالس المحلية و قيادة المؤسسات الحكومية وغير الحكومية.

– ما هي أولويات الإصلاح لديكم؟

•كنا وما نزال من طلائع القوى التي دعت الى التغيير والإصلاح. وحتى يجري إصلاح حقيقي وجذري، يجب الشروع في الإعداد للانتخابات الرئاسية والتشريعية والمحلية، وفتح ملف الانتخابات في مؤسسات المجتمع المدني، لأن صندوق الاقتراع هو القادر على إحداث التغيير والإصلاح وليس أسلوب التعيين الفوقي.

من جانب آخر على السلطة التنفيذية الإسراع في صياغة دستور الدولة العتيدة، بحيث يضمن هذا الدستور تزامن الانتخابات التشريعية والرئاسية، ويكفل الفصل بين السلطات، ويفتح المجال أمام استحداث منصب نائب رئيس، ورئيس للوزراء. وهنا تجب الإشارة الى أن مطالبتنا باستحداث هذين المنصبين قديمة وهي مثبتة في برنامج «فدا» قبل أن تصبح مطلبا أمريكيا وإسرائيليا.

وفي الإطار ذاته نؤكد ضرورة إعادة هيكلة المؤسسات والوزارات من خلال دمج الوزارات والهيئات ذات المهام المتقاربة واقتصار عدد الحقائب الوزارية على ١٩ حقيبة فقط.

كما أننا نجد في تطبيق قانون الخدمة المدنية، وسائر القوانين التي تم إقرارها من قبل المجلس التشريعي، أولوية ملحة وهامة، على أن يتزامن ذلك مع وضع مجموعة من البرامج والخطط، التي من شأنها المساهمة في تحسين الحياة الاقتصادية والمعيشية للمواطن، خاصة في ظل الخسائر الباهظة التي تكبدها جراء الاعتداءات الإسرائيلية، وارتفاع نسبة البطالة جراء الحصار الإسرائيلي، وغيرها من الإجراءات التعسفية. هذه برأينا أولويات من شأن إنجازها أن يكون بداية موفقة وجيدة لعملية إصلاح جذرية وشاملة على مختلف الصعد والمستويات.

في عنق الزجاجة

زكريا محمد

نحن الآن في عنق الزجاج
هل يمكن لنا أن نخرج منه؟
هل نملك الإرادة على ذلك؟
ولو ملكناها هل تساعدنا الظروف على الخروج أم إنها اكبر من طاقتنا؟

هذه هي الأسئلة التي علينا ان نجيب عليها. ويبدو ان بعضنا لا يدرك معنى هذه الأسئلة أو لا يدرك أنها مطروحة أصلا. فمن يستمع على «الرنتيسي» أو «الزهار» على شاشة الجزيرة سيعتقد أن هذه الأسئلة مطروحة على الإسرائيليين لا علينا. وحين تستمع إلى مثل هؤلاء فإنك ستصل إلى أن الخروج من عنق الزجاجة ليس أمرا مؤكدا أبدا، أو ان احتمالات حصوله ليست عالية جدا، وأنه إن حصل فسيتم بفعل الحظ والصدفة وتشابك الأحداث، لا بفعل حنكتنا وإرادتنا.

في كل الأحوال نحن نتحدث عن واقع لا عن أوهام وأحلام. تقول هذا الواقع: أننا في وضع صعب جدا. فبعد عامين من الانتفاضة فإن ميزان القوى يميل بشدة ضدنا. نحن نفقد السيطرة على مجرى المواجهة، بينما العدو يزداد قدرة على إدارتها. ليس ثمة انتفاضة. توجد حرب إسرائيلية متواصلة ضدنا. وحين يبلغ ضغط هذه الحرب أقصاه ينفجر الناس ليوم أو يومين. فوق ذلك يبدو المجتمع منهكا من طول أمد المواجهة، ومن الحرب الاقتصادية الضارية التي شنت ضده لتركيعه. رغم ان هذا المجتمع في غالبيته، يدرك بعمق أنه لا مجال للهزيمة ورفع الراية البيضاء. أي أنه على استعداد للتحمل، إذا ما أديرت المعركة بشكل جيد. يثبت ذلك الهبة العفوية ضد محاولة إذلال الرئيس ودفعه الى الاستسلام.

إذا كان الأمر كذلك فان المطروح هو البحث عن طريق للقيام بتراجع تكتيكي من اجل كسب الوقت ودرء المخاطر التي تتجمع الى ان ينجلي الموقف بشان العراق.

ويبدو ان القوى والتيارات السياسية تنقسم بهذا الخصوص الى أقسام ثلاثة:

الأول: ويمثلة القطاع الواسع من حماس والجهاد الإسلامي. وهؤلاء لا يرون أننا في مأزق. فمن وجهة نظرهم نحن ننتصر ونوشك على هزيمة إسرائيل. لذا فهم على استعداد لمضاعفة سوء وضعنا في كل لحظة.

الثاني: وهو لا يقل خطرا عن الاتجاه الأول يعتقد ليس أننا في مأزق بل إننا قد هزمنا، وأن علينا أن ندفع ثمن هذه الهزيمة. يقول قائد هذا الاتجاه« لقد هزمنا بلا شك». ولأن الهزيمة قد وقعت وصارت أمرا مؤكدا فان علينا ان نبتلع ثمارها المرة من يد شارون ذاته.

المشكلة مع هؤلاء أنهم يعلنون قيادتهم لتيار الإصلاح. فهم يريدون تبليعنا الهزيمة باسم الإصلاح ذاته. الإصلاح هنا يتحول إلى عملية لإصلاح ذاتنا لكي تتوافق مع ما يريده شارون لا لكي نصمد وندرأ الهزيمة. الإصلاح إذن مطية لا غير. مطية تستخدم لجذب الجمهور إلى منطق الاستسلام.

لقد فشل هذا التيار مؤقتا على الأقل. فلعبه المتهور والرديء وضعه في مواجهة الجمهور، الذي فهم ان الاستسلام هو ما يعرضه عليه لا الإصلاح. وقد رد الجمهور على هذا التيار بالهبة الأخيرة إثناء حصار الرئيس. لقد دحرتهم الهبة. وكان بعضهم يظن، بوعي أو بغير وعي، أن دبابات شارون يمكن أن تساعد في تنفيذ إصلاحهم. لقد احترقوا مؤقتا.

لم يدرك هؤلاء الأمر جيدا. لم يدركوا اين نحن. لذا أرادوا أن ينقذوا سلطتهم من دون حساب للناس والمعركة. فالسياسة المتبعة في نظرهم سياسة متهورة ويجب وقفها للحفاظ على سلطتهم. إنهم ما زالوا مقتنعين ان أوسلو ما زالت حية وأن بالإمكان إنقاذها عبر التكيف مع الشروط الإسرائيلية. المشكلة أنهم هم «رجال الرئيس» الذين رسخوا الواقع الذي نعيشه ووشوا بمن حاول ان يغيره.

لم يدرك هؤلاء انه منذ أواخر آذار لم يعد لدينا سلطة في الواقع. وبالتالي فان تركيز جهدنا على إصلاح هذه السلطة لن يخرجنا من المأزق إلا بمعنى القبول بما يريد شارون.

غياب القيادة

قبل هذا الاجتياح لم يكن عندنا قيادة. كانت عندنا سلطة ما. بعد الاجتياح لم يعد لدينا لا سلطة ولا قيادة. لقد كانت السلطة بأجهزتها بديلا عن القيادة. وعندما سحقت هذه الأجهزة بالدبابات دخلنا في الفراغ، حيث لا سلطة ولا قيادة. لقد حصل فراغ كان يجب أن ننشغل بملئه. لكن هذا التيار، أو بعضه على الأقل، فهم من الفراغ شيئا آخر. كان الفراغ عنده أن الرئيس محاصر لا يستطيع القيام بدوره، وليس من المحبذ أن يعود لذلك، لذا فلا بد من ملء هذا الفراغ عبر إفلات الحبل من يديه. هذا هو الإصلاح كما فهموه. لكن الفراغ كان غير ذلك تماما. الفراغ كان غياب قيادة للناس تعيد تنظيم قدرتهم على المواجهة في الظرف الجديد الصعب. هؤلاء لم يكونوا يفكرون في الناس وفي المواجهة. لذا نراهم يشاركون في لعبة المناصب الوزارية التافهة التي تجري أمامنا. وكأن تغيير الوزراء سيغير وضعنا. هذا التيار يظن ان بالإمكان إعادة العجلة إلى الوراء، أي إلى ما قبل الانتفاضة، عبر الخضوع للشروط الإسرائيلية، أي عبر إحداث تغييرعميق في بنية السلطة يزيح طابعها الوطني.

وبدل أن يتم تجميع صفوفنا من أجل استئناف الكفاح ضد الحرب الإسرائيلية، بدل أن ندرس تكتيكاتنا ونعزل الضار منها، أدخلونا في لعبة الإصلاح لسلطة لم يعد لها إلا وجود رمزي.

التيار الثالث الذي لا مركز له هو الذي عبرت عنه الهبة الشعبية. إنه تيار غاضب على السلطة وعلى ممارساتها لكنه ليس مستعدا لإعلان الهزيمة ورفع الراية البيضاء. وهو يرى أصلا ان أي إصلاح يجب أن يبدأ بكنس عدد من قيادات ما يسمى بالإصلاح. فوق ذلك فهو يعتقد أن الإصلاح الذي نريده أعمق بكثير من الإصلاح المطروح. إنه إصلاح للحركة الوطنية كلها بهدف خلق قيادة للناس على الأرض. فمن دون قيادة لا يمكن الوصول إلى النجاح في المعركة. ومنذ الاجتياح في أواخر آذار فقد ظهرت بوضوح أزمة القيادة على مداها. لا احد يقود الناس. والذين يدعون الإصلاح مشغولون بمؤامرات القصور– القصور المدمرة لكي تكتمل السخرية–. ليس لهؤلاء أية علاقة مع الناس. لقد تركوا الناس في الشارع عزلا وانشغلوا بالوزارة ورئاسة الوزارة لسلطة غير موجودة. لم يتصدوا لقيادة الناس في معركة كسر حظر التجول والإغلاق بل قعدوا يتآمرون لإعادة الزمن الذهبي الضائع للمرحوم اوسلو. أما «القيادات الفضائية» فلم يجدها الناس حين احتاجوها. كانوا يضعون اللوم على السلطة وحين دفنت السلطة لمد ستة أشهر بالجرافات في المقاطعة ثبت أنهم مجرد بالونات منفوخة لا غير.

في كل حال فإن العمل الفعلي يجب ان يبدأ من تحت. أي عن طريق إعادة تنظيم الناس لمواجهة مختلفة في ظرف مختلف. وهذا بحد ذاته هو العمل الذي يولد قيادة جديدة من دون رمي القيادة الرمزية قبل أن تنشا القيادة القادرة على الحلول محلها.

وعلى أبواب الحرب شبه المؤكدة على العراق فإن أول ما ينبغي فعله هو الكف عن تكبير قصة الإصلاح في سلطة يستطيع ضابط حرس حدود واحد ان يمنع كل عملها. ثمة مخاطر كبرى في الأفق وثمة احتمال لفرص. علينا ان نحاول بسلوكنا زيادة الفرص وتقليص المخاطر ومحاولة درئها. ثمة مخاطر قد تصل في حدودها القصوى حد التهجير. وثمة فرص أيضا. نقول ذلك حتى لا تكون المخاطر وحدها هي التي ترى.

علينا بالتأكيد ان نهدا. وان نهدا لا يعني ان لا نعمل شيئا. بل أن نعمل بعقل وحساب. وعلى العكس مما قد يظن فربما اكتشفنا أن علينا ان نتحرك لا ان نهدأ بالمعنى السلبي. فلا يمكن اغتنام الفرص إن وجدت فقط عبر الكمون. بل ربما اغتنمت عبر الحركة والتظاهر والمواجهة. لكن في كل الأحوال من الواضح ان الحركة يجب ان تكون شعبية سلمية.

لقد اكتشف لبنان على سبيل المثال ان بإمكانه الآن، وفي أجواء الحملة على العراق، أن يحصل على شيء من مياهه. وفي ظرف آخر كانت الطائرات الإسرائيلية ستقصف محطة الضخ الجديدة لمياه الوزاني.

هذه حرب أيها السادة ولن تكسب بأن يرضى عنا شارون أو بوش. علينا أن نحسب الأمور. وربما أوصلنا الحساب إلى الخروج إلى الشارع لا العكس كما تفكر الكتلة «الإصلاحية».